إنقاذ الأطفال

لحضرة صاحب المعالى الأستاذ ابراهيم دسوقى اباظة

وزير الشئون الاجتماعية

" الكلمة التى ألقاها معاليه بوصفه ضيف الشرف فى حفلة افتتاح نادى كوبرى الليمون للأطفال المحرومين يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤١ وهذا نصها بعد كلمة شكر وجهها معاليه إلى النادى وأعضائه "

المحرر

أيها السادة : إن مشكلة الأطفال التى يحاول هذا النادى المحترم أن يعالجها معضلة صعبة، حلها بعيد المنال، ولكنها لا تستعصى على الهيئات الاصلاحية الجدية . ومنها "نادى كوبرى الليمون" ، فما من مصرى مثقف إلا وهو يشعر بالألم حين يرى عبث الأطفال فى الشوارع يضايقون الناس والشرطة فيلعبون و يتبارون و يتشاجرون و يتعلقون بمركبات الأوتوبيس والترام و يدخلون فى كل زحام، إلى الحد الذى يعرقل المرور و يعقد مهمة التنظيم و يزيد من حوادث الصدام المؤلمة التى تزهق فيها الأرواح أحيانا؛ وهم فوق ذلك يحرجون صدور اجهور بالاستجداء المصحوب بالإلحاح الشديد ؛ ومنهم من يشتغلون بالسرقات والنشل والخطف خلال احتكاكهم بالناس ولا سيما اذا أمنوا الرقيب وضمنوا النجاة ، أو يشاكسون الأفراد للتسلية واللهو أولابتراز شىء مما يملكون، والصحف توافى قراءها بأنبائهم بين حين وحين ؛ ومنهم من يجمع أعقاب التبغ من المقاهى والأرصفة والشوارع ومن بين أرجل المارة فيدخنونها أو يبيعونها وهى قذرة بالطبع ، وقد تكدست فيها سموم النيكوتين هذا إلى مضايقة السائحين والضباط والجنود الأجانب ، فهم يتشبثون بملابسهم و يلحون عليهم بما فى نفوسهم من مطالب، و يلازمونهم ملازمة الظل فيثيرون نفوسهم بالإلحاح والضجة والقذارة والعربدة، ويكونون أسوأ عنوان لهذا البلد، و يضيعون على رجال الشرطة فى مطاردتهم وإنقاذ الناس منهم وقتا هم فى أشد الحاجة اليه لتأدية واجباتهم وصيانة الأمن وضبط المرور .

ورجال البوليس معذورون بعض الشىء فى القسوة عليهم حينا ، لأنهم يرون فيهم أعداء للسكينة والأمن والنظام، وقلّ أن يقع حادث فى الطرقات والميادين دون أن تكون لهؤلاء الأطفال يد فيه، لأنهم إن لم يكونوا السبب الأصيل فى الحادث كانوا على الأقل عونا أو أداة أو ستارا لبعض المجرمين الكبار .

وفى الحق إن مسألة الأطفال ليست بالمسألة التى يجوز لنا أن نعالجها عرضا بجانب البحث فى عرقلة حركة المرور أو مضايقة المارة أو تعطيل البوليس عن تأديه واجباته ، كما يفهم من الأسلوب التى تتناوله الصحف وتلوكه ألسنة دعاة الإصلاح مطالبة بتأديبهم وزجرهم وقمعهم وغل أيديهم عن العبث والاستهتار وبث الفساد فى المدينة. فذلك لا يعد حلا للمشكلة ، لأن هذه الأضرار جميعا إنما هى آثار ونتائج للسبب الأصيل الذى يجب أن نعالجه ، ومعنى ذلك أن وجهنا إنما هو انتظار المسألة على أنها مشكلة الأطفال أنفسهم لا مشكلة الشارع والشرطة والجمهور . . . . هى أجل وأعلى وأبعد مدى من ذلك ، فهى مشكلة إنقاذ طائفة كبيرة تعدد من شبان نعد لو أحسن توجيههم لنال المجتمع من ذلك خيرا وأى خير ، بل هى مشكلة تهذيبهم جسما وروحا لتطهير أجسامهم من القذارة ونفوسهم من التمرد فيندمجوا فى المجتمع الصالح الذى يظلله العرف والأخلاق والقانون .

ما الذى ينقص هؤلاء الأطفال ليصبحوا مواطنين نافعين يستفيد الوطن من مواهبهم وجهودهم ومزاياهم الكامنة " .

أرى (أولا) أن هؤلاء الأطفال محتاجون الى المكان الذى يصرفون فيه نشاطهم ، ويرضون الغريزة الطبيعية التى نجدها فى صغار الانسان والحيوان معا ، والتى تجنح الى اللعب والمرح ، والقفز والوثب ، وما إلى ذلك من نشاط لا يراد به غير النشاط لذاته . كما أنهم فى حاجة الى المكان الذى يسمح لهم بأن يتناضلوا ويهوا هوا بريئا ينفع أجسامهم وعقولهم ويعدهم إعدادا حسنا لمعترك الحياة ، فالحركة والنشاط وما اصطلح الناس على تسميته " شقاوة " هى شىء أساسى فى حياة الطفل ، فاذا أمكن حكمه حكما صالحا وتوجيهه توجيها صحيحا أصبح مواطنا من خير المواطنين ...

أين هذا المجال لأطفال القاهرة ؟ لا شىء . لا شىء إلا منازلهم . وهى كما يعرفها كل متعلق فى حياة الفقراء . قد يتكون الواحد منها من حجرة واحدة للأسرة كلها فليس فيها الكفاية حتى للنوم والسكون والراحة ، فاهيك الحركة والنشاط . إذن فهؤلاء الأطفال لا يجدون متسعا لنشاطهم سوى الشوارع فهم يستولون عليها عنوة على الصورة التى وصفناها . فيشق بهم الناس والبوليس بل هم يشقون بأنفسهم .

(ثانيا) يحتاج الأطفال الى نوع من التنظيم . وصورة من حياة الجماعة لكى يدركوا معنى حياة الاجتماعية ، ولن يكون هذا إلا اذا عرفنا كيف نهيئ لهم أن يعيشوا وينشطوا جماعات جماعات . وأن يتناقشوا ويبحثوا ويتشاوروا فيما يهتمون به من شؤون ، ثم يقرروا وينفذوا قراراتهم . ومتى تكاتفوا فى سبيل غاية واحدة سواء أكانت هذه الغاية هى مجرد اللعب . أم كانت نشاطا اقتصاديا منتجا ، كان فى استطاعتهم أن يفهموا معنى الحكومة

ومعنى الحاجات وإشباعها ، ومعنى الحياة المشتركة وما تتطلبه من تعاون ومن تنظيم لشئون أفرادها ، وترتب على هذا كله القضاء على نوعى الأهواء الفردية وطغيان الغرائز الوضيعة .

(ثالثا) علاج الحالة الاقتصادية ورفع مستوى المعيشة . فالشكوى من الفقر ومن تفشيه بين هذه الطبقات المسكينة تجرى على كل لسان ، والفقر يقوم على ساقين احداهما ركود العمل الاقتصادى ، من الانتاج والتعامل والحركة والأخذ والعطاء والبيع والشراء ، والثانية انحطاط معدن الأفراد فى الأمة . ونعنى بمعدن الأفراد الكفاءة الانسانية والعناصر النفسية المكونة للفرد . وهناك أثر باق لمستوى الاقتصادى ، فمتى استطعنا أن نرفع المستوى النفسى لأية أمة وان نبث فيها روحا عالية معينة وعقلية معينة وأن نغرس فى أبنائها حب العمل والكفاح ورغبتهم فى الارتقاء والتقدم سموا بالأمة جميعا وسما أبناؤها أدبيا وماديا . وليس الذى نكرهه فى الفقر هو الفقر لذاته فحسب . بل نكره تواكل أصحابه وركونهم اليه ورضاهم به ، ومن واجبنا أن نعمل للقضاء على هذه الاستكانة ونبعث فى الأفراد روحا جديدة فيها من ورع وتحفز ينبنى عليه حد وجرأة واقدام .

(رابعا) علاج المشكلة الصحية لأولئك الأطفال ، وهى يتطلب تفكيرا وجهدا لا من الهيئات والسلطات وحدها ، بل من الأطفال أنفسهم . وسبيل ذلك ترغيبهم فى الالتفات الى شئون أبدانهم من نظافة ونظام والبعد عن ممارسة مايزيد فى علتهم كاللهو غير البرىء والسهر الى ساعات متأخرة والتعرض لتقلبات الجو العنيفة دون ضرورة ، وهذا وسواه يحتاج لإشراف وعناية شديدة والمدربين والمنهلمين على الأطفال الذين يتصلون بهم مباشرة للنهوض بأحوالهم جسما وروحا .

وهناك بعد كل أخرى كتثقيف الأطفال وشحذ أذهانهم وتفتيقها بالمناقشة ومصارعة الآراء والمغالبة والتمحيص والدرس ، ثم مشكلة التغذية الملائمة لسنهم الصغيرة ، ومسألة علاقاتهم بأهليهم وذويهم فى بيوتهم إن كانت لهم بيوت . وتدبير المأوى لهم ان كانوا محرومين حتى من المأوى .

كل هذا يجب أن تتكاتف على حلها الحكومة والشعب والأطفال أنفسهم . بل الأطفال أنفسهم هم أول هيئة أخرى بالجدوى لأى نظام إصلاحى ما لم تشترك فى تنفيذه طبقته التى يراد اصلاحها . وطاقة البلاد المالية ليس فى وسعها أن تحتمل أعباء الاصلاح كلها . وتعاون الأطفال أنفسهم فى عملية الاصلاح يصرهم غية الضرر ، إذ يسلبهم الحافز القوى الى الجد والعمل والانتاج . ولا محد فى الحياة الا بحافز وبنزوع يدفع النفس الى الدأب والعمل .

لذلك فقد اصطلح المفكرون على أن الاصلاح يجب أن تقوم به جهتان . إحداهما جهود الشعب والحكومة والطبقات المستنيرة ، والثانية هى جهود الطبقة التى يراد لها الاصلاح .

ننتهى من ذلك كله إلى أمرين أساسيين لحل مشكل الأحداث . فنحن نحتاج أولا إلى قادة وزعماء مدربين التدريب الكافى ، بحيث يستطيعون أن يعملوا بين هؤلاء الأطفال فيرفعوا مستواهم الفكرى والاجتماعى والروحى ، ويمكنوهم من الاحتفاظ بالثقة الذاتى ، ويدلوهم على الدرجات الأولى لسلم التقدم ، ويدفعوهم إلى التقدم درجة بعد أخرى . ويسرنى أن أذكر أن وزارة الشئون الاجتماعية معنية بهذا الأمر وهى تتعاون فعلا مع إحدى الجمعيات على إخراج هؤلاء القادة المدربين .

ثم نحن فى حاجة إلى ميادين أو أمكنة أو أندية يلتقى فيها هؤلاء القادة مع الأطفال فتنبت بينهم بذور التعامل ، وتتعدد العلاقات ، وتنشأ الروابط التى تجمع بينهم جميعا ، والتى تنقل المثل العليا من دائرة تفكير القادة فى دائرة تفكير الأطفال وتشاطهم ، فتؤثر فى كل أركان حياتهم الخاصة والعامة ، بحيث لا نقابل مشكلة اجتماعية محتاجة إلى الحل ، بل يدخلون فى نطاق المواطنين النافعين للجماعة والبلاد . وإنى لمغتبط بما تقوم به مؤسسات الأطفال ، كمحلات الرواد ومؤسسة الرفاف الملكى ونادى كوبرى الليمون ، من توفير مجال النشاط لهم بحيث يكون هذا النشاط مما يدعم الحياة الاجتماعية لا مما يهدمها أو يزعزعها .

ويسرنى أيضا أن أذكر أن الوزارة جادة فى دراسة موضوع أطفال الشوارع ووضع برنامج لحل هذه المشكلة ينفذ على عدد معقول من السنوات . فنصل فى القريب العاجل إلى تعميم أندية الأطفال بحيث تتسع لأطفال القاهرة بل أطفال المملكة كلها .

والآن والكل يجب أن يبذل من جهده وماله ما يستطيع فإن مما يرضى نفسى أن أتبرع لهذا النادى البعيد عن أمواج السياسة والمتعرض للأديان بمبلغ صغير أرجو أن يتفضل بقبوله ، فليس أولى من الطفولة البائسة بالعطف والرحمة والحنان .

ابرهيم دسوقى أباظة